من أجل سوسيولوجيا للكتابة
بيار تسيما

ترجمة شمس الدين شرقي
جامعة -تيزي وزو-

ينبغي لسوسيولوجيا الأدب، لكي تتحول إلى سوسيولوجيا للنص الأدبي (أي إلى سوسيولوجيا للكتابة)، التخلي عن بعض الممارسات التقليصية التي حالت في الماضي دون ارتقائها إلى نظرية مقبولة: 1 ـ عن فكرة سوسيولوجيا المضامين التي ترى أن للنص الأدبي (مبتذلا كان أو غير مبتذل) "مضمونا" يمكن إدراكه إدراكا مباشرا، كما يمكن استخلاص معناه الاجتماعي في المستوى الموضوعاتي ("الأفكار الاجتماعية في آثار شارل ديكنز"، "الأرستقراطية عند مارسيل بروست"، الخ)؛ 2 ـ كلّ محاولة لاختزال النص الأدبي إلى نسق مفهومي (إلى "بنية مدلولات"، بارط) ومماثلته مماثلة تعسفية بخطاب خاص حول الواقع الاجتماعي؛ 3 ـ فكرة أن السوسيولوجيا الأدبية لا علاقة لها بالنص، وأنها لا تهتم سوى ببنيات خارج-نصية.

يتعلق الأمر هنا بسلوك اتجاه معاكس للإثبات الأخير، إذ لا يمكن لسوسيولوجيا الأدب أن تتأسّس كسوسيولوجيا للنص إلاّ إذا فكرت في البنيات الخارج-نصية بوصفها بنيات نصية.

إن فكرة تمثيل البنيات الاجتماعية بوصفها بنيات نصية ليست جديدة؛ فهي فكرة موجودة في بعض كتابات الشكلانيين الروس، وبخاصة في كتابات تينيانوف الذي حاول توضيح الكيفية التي تدمج بها نصوص غير أدبية، تؤدي وظيفة اجتماعية محددة (مثل الرسالة)، في خطاب تخييلي لتصبح بذلك وقائع أدبية. كما أقام باختين، الذي خصّص فصلا كاملا في كتابه عن رابليه لـ "الألفاظ المتداولة في الساحة العامة في آثار رابليه"، علاقات بين بعض الأشكال اللسانية السائدة في مجتمع معيّن والنص الأدبي: «لقد فحصنا دور الساحة العامة التي هي قبل كل شيء "أصوات". وقد قلنا إنّ هذه الأنواع العامية تتسرب إلى الآداب الجميلة للعصر وتضطلع ضمنها بدور أسلوبي هام[1]». لقد طُبقت هنا فكرة ي. لوتمان التي مفادها بأنه من الممكن النظر إلى

1- M. Bakhtine, L' œuvre de François Rablais…, Gallimard, 1970, p. 183.

الثقافة بوصفها "نصا ثقافيا" ولو أن ذلك التطبيق تمّ في مستوى نظامي أقل من ذلك الذي بلغه في أعمال مدرسة تارتو.

لقد لاحظت كريستيفا بصدد المقاربة الباختينية:«... يُمَوْقِعُ باختين النص داخل التاريخ وداخل المجتمع منظورا إليهما بوصفهما نصّين يقرأهما الكاتب ويندرج ضمنهما بكتابتهما»[1]. وهي نفسها اقترحت قراءة رواية " *Jehan de saintré*" (لـ أ. دي لاسال) بوصفها «ملتقى فضاءات نصية» تلتقي فيه نصوص كثيرة، تشغل وظائف اجتماعية محدّدة ("الوصف المدحي"، "الاستشهاد")، مشكلةً [بذلك] النصَ الأدبي. وهكذا يتجلى هذا الأخير "تناصا" (كريستيفا) أنتجه الكاتب الذي "يقرأ" و "يعيد كتابة" (يحوّل) نصوص مجتمعه أو نصوص مجتمعات سابقة.

ويبدو أن مثل هذه المحاولات الهادفة إلى وَصْلِ المجتمع بالنص الأدبي تلائم البنية اللسانية لهذا الأخير ملائمة أفضل من تحاليل لوكاتش وغولدمان التي تسعى إلى توضيح الكيفية التي تعبر وفقها نصوصٌ عن بعض الإيديولوجيات أو الفلسفات التي يمكن ربطها بمصالح تجمعات اجتماعية خاصة. ذلك لأن الأمر متعلق بمعرفة الكيفية التي تندرج وفقها البنيات الاجتماعية في هذه الممارسة الدالة التي تسمى "كتابة"، والكيفية التي تحوَّلُ بها [أي البنيات الاجتماعية] فيها. وعلى كل محاولة مقبولة تهدف إلى الإجابة على هذه المسألة أن تتموقع في المستوى اللساني، بمعنى أنها تحرص على التفكير في المصالح الاجتماعية على هذا المستوى.

هنا تكشف نظريات باختين، ولوتمان وكريستيفا عن ضعفها: 1 ـ فإهمالها لمسألة الذات الجماعية (وهي القضية المحورية في المقاربات الماركسية)، جعلها تعجز عن إسقاط الصراعات على المستوى اللّساني بوصفها صراعات بين جماعات. 2 ـ لا تمَثُّلُ التحولات الحاصلة في المسار التناصي بصفتها مواقف اجتماعية وإيديولوجية (أو مضادة للإيديولوجيا).

إن اللّغة ليست كما لاحظ باختين/فولوشينوف في كتابه "الماركسية وفلسفة اللّغة"، وهو محق في ذلك، نظاما محايدا يستعين به الكاتب على "التواصل" مع الآخر. إنها أحد الأنظمة السيميائية والاجتماعية التي تتصارع داخلها مصالح جماعية متنافسة[2]. وهكذا فإن النقد الذي يوجهه شارل موراس

1- J. Kristeva, Sémeiotiké- recherche pour une sémanalyse, Seuil, 1969, p. 144.

2- Voir : M. Bakhtine (V. N. volochinov), Le marxisme et la philosophie de langage, Minuit, 1977.

C. Mauras إلى الرومانسيين الذين يعطون الأولوية للكلمة على حساب الجملة (النحو الجملي) فعل سياسي لا يُفصَلُ عن الإيديولوجيا القمعية والرجعية لموراس والفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها. (يتلازم الدفاع عن صرامة التركيب مع كلاسيكية ذات نزعة تقليدية ومتسلِّطة).

تطور كل فئة اجتماعية، لغرض التعبير عن وضعها الاجتماعي وعن مصالحها الخاصة، خطابا خاصا بها ("لهجة اجتماعية"، غريماس) مبنينة بطريقة معينة على المستويين التركيبي والدلالي ومعارضة لخطابات جماعات أخرى كثيرة. ويمكن الحديث عن الموقف السوسيولساني لتعيين المتضادات *Antagonismes* الاجتماعية تعيينا عاما، كما تتمظهر من خلال اللّغة: في نصوص مكتوبة أو شفهية. وقد نتمكن، في سياق مثل هذا الموقف، من تبيّن أهمية رواية من قبيل "آلام الشاب فارتر" وأهمية النجاح الذي حقّقته. لقد استعادت هذه الرواية، بتشربها للخطاب التراسلي، عنصرا هاما من "اللهجة الاجتماعية" للبورجوازية الليبرالية لتلك المرحلة؛ أي لجماعة اكتشفت عالم الفرد الخاص والكتابة الموافقة له ألا وهي الرسالة. تصبح روايةً كل رسالة بصفتها تعبيرا عن هوى شخصي *passion privée*. ويُبِينُ تحولها الروائي، الذي تجد فيه إيديولوجية الليبرالية تعبيرا أدبيا، عن النجاح، وفي الآن ذاته عن الشجب الذي صادفه "فارتر" (من قبل رجال الدين والأمراء المستبدين).

تحكم كل مقاربة تكتفي بوصف تشرب الإنتاج الأدبي النصوص غير التخييلية (الوثائقية) على نفسها بالبقاء سطحية، بل وبالابتذال. يتعلق الأمر من وجهة نظر سوسيولوجيا النص بالتصدي لمسألتين هامتين تخصان النتائج المترتبة عن التناص الخارجي (تشرب نصوص غير تخييلية في رواية، أو مأساة، أو قصيدة) على المستويين الدلالي والتركيبي.

تشغل هاتان المسألتان مكانة مركزية في كتابنا الموسوم "الازدواجية الروائية: بروست وكافكا وموزيل"[1]. وقد فُحِصَتا على ثلاث مستويات متكاملة. لا نروم هنا تلخيص دعائم بحث موجه نحو سوسيولوجيا الرواية ونحو أعمال بروست بصفة خاصة. مع ذلك فقد يكون مفيدا قول بعض الكلمات حول علاقات التناص عند بروست والقضايا الدلالية والتركيبية (السردية) للرواية، وذلك من أجل توضيح القوانين النظرية *théorèmes* المقدمة هنا بصورة أفضل.

1- Le Sycomore, 1980.

إنّ الفكرة التي مفادها أن اللهجة الاجتماعية للمحادثة، ونعني كلام الطبقة الراقية، قد أُدمِجت وحوِّلت (بالمحاكاة والمعارضة) في "البحث عن الزمن الضائع" تشكل نقطة انطلاق التحليل. يظهر الحديث في الرواية، تماما مثلما هو عليه الحال في الواقع اليومي للصالونات، لغة مُنَمَّقَةٌ ومفصولة عن الممارسة الاجتماعية، وقد جعلتها ممكنةً الحياةَ الخاملة لأصحاب الريع البرجوازيين النبلاء القاطنين "ضاحية سان جرمان". ولئن كان هذا الحديث في ظاهره مجرّدا من كلّ جدوى اجتماعية فإنه محكوم، مع ذلك، بمبدأ نفعي. إنّ اللغة بالنسبة للمتحدث هي مجرّد وسيلة تتيح له البروز والارتقاء في السلّم الاجتماعي؛ فهو لا يعبأ لا بالحقيقة النظرية ولا بالميزات الجمالية بوصفها أهدافا مستقلة. وفي نظره يمكن لكل فضائل اللّغة أن تختصر إلى هدف وحيد تابع *hétéronome* أي خاضع إلى نجاحه الشخصي.

تمتلك المحادثة فيما يخص هذه النقطة بنية مشابهة لبنية الخطابة الإشهارية التي تتحول فيها كل الميزات (كل الاختلافات النوعية) إلى مجرد وسائل بسيطة تفيد في تحقيق النجاح التجاري والريع. تُقِرُّ المحادثة، مثلها مثل الإشهار، بالميزات الجمالية (البلاغية) والفكرية *intellectuelles*، غير أن هذه الميزات أقنعة لا تفيد سوى في حجب مبدأ التبعية.

إن المحادثة عند الطبقة الراقية في الجمهورية الثالثة، التي نشأت في حضن أصحاب الريع كنتيجة غير مباشرة لتراكم رؤوس الأموال، هي لهجة اجتماعية موَّسَطَة بقيمة التبادل: يتعلق الأمر بالنسبة للمتحدث الذي يمتلك بعض المعرفة وبعض المهارة الخطابية (البلاغية)، بتبادل هذه الأملاك الثقافية لأجل "الارتقاء" في المجتمع، ولأجل تحقيق مكانة اجتماعية لنفسه. إن كل ما يفعله موجه نحو الآخر، وبالتالي فالمحادثة محكومة بقانون (لأجل- شيء- آخر) ، الذي هو بمنظور أدورنو نتاج للوساطة عبر قيمة التبادل.

إن القضايا التي طرحتها اللهجة الاجتماعية للتواصل، والتي هي في الآن ذاته، دلالية وإيديولوجية ووجودية، قد تشربتها الرواية البروستية [نسبة إلى بروست] حيث يشغل غياب القيم النوعية والاختلاف (الدلالي) لب المشهد ضمن عالم التواصل الاجتماعي. يصبح هذا الغياب القضية الدلالية الأساسية لرواية "البحث": فلا يكف السارد عن محاولته إقامة "اختلافات" بين البرما *la Berma* والممثلات الأخريات، بين آل سوان وباقي العالم. وعندما تمحى في نهاية الرواية الاختلافات الجوهرية بين "ناحية سوان" و "ناحية غورمونت" محوا فجائيا في خلال حديث مع جيلبيرت *Gilberte*، يعترف

السارد اعترافا أخيرا باستحالة تحديد مَكْمَنِ الاختلاف في عالم اللهجة الاجتماعية للطبقة الراقية الذي هو عالم مظاهر خداعٍ وأقنعةٍ.

إن أصالة وأهمية "البحث" البروستي تكمن في استبدال بروست الانسجام التركيبي التقليدي بانسجام دلالي جديد، والذي يمكن أن نمثله بوصفه تطويرا وبوصفه تحويلا لأقطاب معنمية* (غريماس). فللبحث بنية استبدالية عوضا عن أن تكون تركيبية. وتحولات الأقطاب الدلالية يمكن النظر إليها على أنها ردّ فعل منتج للازدواجية الدلالية (ومن ثمة للوساطة). إن تحولات أقطاب معنمية متعارضة تنتج مباشرة عن محو كل التعارضات الدلالية المزيفة لعالم الكلام التواصلي (المحادثة).

ينتهي بروست بمعارضة هذه الأخيرة بكتابة استبدالية وحُلُمية *onérique* موجهة نحو اللاوعي، نحو قوانين "الذاكرة اللاإرادية". تعارض هذه الكتابةُ الناتجةُ عن تحلُّلِ المبدأ التركيبي التقليدي، الذي كان ينظم روايات القرون السابقة (إلى نهاية القرن التاسع عشر)، الوساطةَ عبر قيمة التبادل، الملازمةَ لكلام الطبقة الراقية، بمبدأ قيمة الاستعمال: أي بالإنتاج النصي حيث تصبح العلامة اللفظية هدفا لذاتها عندما تكف عن أن تكون وسيلة تبادل. ففي نص بروستي من قبيل "أسماء البلدان": الاسم الذي حلّلناه تحليلا مفصلا، يتعارض الدال غير_القابل للتبادل، ومنطلق ترابطات صوتية ودلالية، بالمصطلح الكوني: الأمر نفسه للجميع. وبهذا يلتحق بروست، بنقده خطابات الحديث (بوصفه كلاما) الموّسطة، بالمجهود الملارمي لتخليص اللغة من آثار قانون التبادل الذي هو في الآن نفسه قانون التواصل اللفظي.

ونهاية "البحث" (الزمن المُسْتدرك) هي التي تُبِينُ إلى أي درجة يكون فيها القناع والتمويه مظهرين لازدواجية الطبع *ambivalence caractérielle* والازدواجية الدلالية بصفة عامة: فكل الشخصيات تقريبا تظهر فيها كائنات مزدوجة تنتمي إلى مجال الظاهر. ووفق هذا الأفق، يظهر "البحث" بحثا دلاليا عن القيمة وعن الاختلاف النوعي الذي لا يمكن العثور عليه في واقع سوسيولساني تحكمه قوانين الوساطة، وقوانين التبادل.

وعندما تأخذ الوساطة شكل الازدواجية الدلالية (ازدواجية الطبع وازدواجية الحدث)، فإنها تنتهي إلى التشكيك في التراكيب السردية للرواية: في

---

* في النص الأصلي: "isotopies sémémiques" ، نسبة إلى "sèmes" والمقصود بها وحدة معنوية.

السببية البسيكولوجية والحدثية والفلسفية. إنّ "سمة الطَّبْع هي دافع الفعل" مثلما لاحظ تودوروف. غير أنه في سياق دلالي مزدوج، حيث الطباع متناقضة، تتعذر إقامة أي علاقة سببية أحادية بين طبع ومقاصده ومتتالية أحداث. فعندما يحاول السارد أن يشرح لنفسه سلوك ألبرتين *Albertine*، يبني "حكايات" ممكنة ومتوازية دون أن يجد بذلك الحكاية الحقيقية، الحكاية النهائية، شأنه في ذلك شأن سوان الذي يجهد نفسه في بناء الحكاية الحقيقية لأوديت *Odette* في عالم روائي مزدوج، مسكون بكائنات "مزدوجة" (بالمعنى الباختيني للكلمة)، ينتهي التركيب السردي بأن يُزَعْزَع، وتتعرض بنية الرواية لأزمة: فانسجام النص لا يمكن للتركيب- الكلي *Macrosyntaxe* أن يضمنه، كما لا تضمنه السببية السردية.

وخلاصة القول: 1 ـ أن تشرّب اللهجة الاجتماعية للطبقة الراقية يدخل إلى الرواية قضية الوساطة (والبحث عن القيمة النوعية)؛ 2 ـ أن الوساطة تأخذ فيها شكل ازدواجية دلالية وأن هذه الازدواجية تنتهي بأن تسبب أزمة التركيب السردي (المركب السردي *syntagme narratif*)؛ 3 ـ إن أزمة المبدأ التركيبي هذه تؤدي إلى ازدهار كتابة جديدة استبدالية تعارض الوساطة بالبحث عن تخليص العلامة اللفظية (بوصفها دالا مستقلا) من السياق الموَّسط للتواصل: التعارض الأساسي لـ "البحث"، هو إذن ذلك الذي بين الكلام والكتابة.

إن هذه المبادئ النظرية التي عُرِضَت بالتفصيل في الازدواجية الروائية، لا يمكنها بالطبع تأسيس سوسيولجية للنص (للكتابة) ذات صبغة كونية (عامة) ولا تدعي ذلك؛ ولكنها قُدِّمت هنا لتدلّ على الوجهة التي يمكن أن تتخذها مثل تلك السوسيولوجية، في موقف لا زالت فيه الصلة التي توحد بين البنية النصية والبنية الاجتماعية تطرح مشكلا وينظر فيها الباحثون معظمُهم بنوع من عدم الارتياح إلى مصطلحات التماثل أو التشابه البنيوي التي أدخلتها نظريات الماضي الجدلية.

وفي الأخير يُبِين تشرب النص الأدبي النصوص "الصديقة" أو "العدوة"، التخييلية أو غير التخييلية، المكتوبة أو المنطوقة، عن تلقيه المعاصر واللاحق. فلا يمكن فهم ردود الأفعال التي يثريها النص ضمن أنظمة اجتماعية وفي أوساط فئات اجتماعية مختلفة بمعزل عن سيرورة الإنتاج الذي تتطور فيه مواقفه (أي النص) الإيديولوجية. وقد يسمح تصنيفا للخطاب، الذي أكدّ أهميته غريماس في كتابه الحديث الموسوم "السيميائيات والعلوم الاجتماعية" لسوسيولوجيا الكتابة

إقامة علاقة بين خطاب (خطابات) نص أدبي و"اللهجة الاجتماعية" (غريماس) للجماعة التي تتلقاه.

في هذا السياق، فإن تلقي الأثر البروستي في كتابات بعض المثقفين الألمان المنضوين (منذ 1928) حول "*institue fùr sozialforsching*" (مدرسة فرانكفورت) يعد مثالا يغني عن أي تعليق. فالنصوص الفلسفية لـ و. بنيامين، وبصورة قطعية حاسمة، نصوص ت. و. أدورنو، تبحث عن الدفاع عن الخاص *(das besonder)* ضد التغيرات الشكلية التي تخضع لها ضمن الأنظمة المصطلحية والتراتبية. فكتاباتهم، التي تتقزز من عوائق التركيب المنطقي والمفهمة النظامية، تنحو إلى التعبير التصويري (الاستعاري، الكنائي) وعلى المبدأ الترابطي للمثال *(paradigme)* ليس مصادفة أن تتوافق مع كتابة بروست الذي سبق وأن لاحظ: « إن الأشياء اقل جمالا مما هي عليه في الحلم، ولكنها أكثر خصوصية من المفهوم المجرّد الذي كوّناه عنها» (ضد سانت بوف). ويظهر تفكير الفيلسوف بصدد الفن وكأنه يرد عن نظرة الفنان هذه: «منذ الأزمنة السحيقة يجهد الفن نفسه لإنقاذ الخاص؛ فالتميّز المتدرج كان له محايثا». *(Asthetische theorie)*

إن القرابة الخطابية التي تصل "النظرية النقدية" (لأدورنو وبنيامين) بـ "البحث" البروستي (والتي لا مناص من ذكرها هنا) لا يمكن توضيحها إلا في ضوء علاقتها بمقولة الخصوصية الواقعة في صلب الخطابين: الواحد مفهومي والآخر تخييلي. وفي الآن ذاته يُفترضُ أن تدرج هذه المقولة، التي هي فلسفية وجمالية في آن، ضمن سياق سوسيوثقافي مطبوع بانحطاط النزعة الليبرالية. وقد حلّل أزمتها ببصيرة نافذة د. هاليفي *D. Halévy*، معاصر بروست (في انحطاط الحرية، 1931)، وأصبحت الموضوع الرئيس للنظرية النقدية بعد أن بلغت أوجها في ظل الديكتاتورية الفاشية.

وختاما، ينبغي التأكيد على استحالة فهم الوظيفة الاجتماعية للنص الأدبي فهما ملموسا ما لم يحدد بالنسبة لـ"التطور الأدبي" أو (بتعبير تودوروف) بالنسبة لـ "الخطاب الأدبي". هذه الفكرة مُضَمَّنَةٌ في نقد وجّهه أ. كوهلر *E. Kohler* إلى "البنيوية التوليدية" لـلوسيان غولدمان: «غير أن بنيويته التوليدية تتجاهل أهمية الوساطة عبر التقليد الأدبي»[1]. هذه الوساطة ضرورية للفهم السوسيوتاريخي لنص ما بالنظر إلى أن قطيعته مع النصوص الأدبية السابقة لا

1 E. Kohler, principes historico-sociologiques et science littéraire, in : Tilas, Univ. De Strasbourg, 1973-1974, p. 7.

يمكن شرحها إلاّ في مستوى سوسيولوجي: في إطار موقف سوسيولساني جديد يجعل بعض أشكال الخطاب الأدبي القديم أشكالا مستحيلة (مفارقة للزمن).

وهكذا فإن القطيعة البروستية مع الرواية "السردية" لبلزاك ومع اللغة التواصلية للكوميديا الإنسانية، التي يقارن بروست أسلوبها مع أسلوب الحديث، لا يمكن فهمها إلاّ في موقف اجتماعي تتحرّر فيه اللغة من الفعل الفردي (فاقدة بذلك صبغتها العملية) لتصبح بنية مستقلة نسبيا. في مثل ذلك الموقف، تصبح الكتابة السردية نفسها، والتي لا يمكن فصلها عن الفعل *action* والحدث *évenement* (عن "السببية الحدثية"، تودوروف)، موضع تشكيك. وأزمتها تتصادف مع أزمة الفرد الفعّال للعصر الليبرالي، عصر أشرف على نهايته في الوقت الذي كان فيه بروست يكتب روايته.